

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس العاشر

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة؛ وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله. وهو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان؛ وكلُّ مرتبة لها أركان. فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجُّ بيت الله الحرام.

لما أنهى المصنف رحمه الله تعالى الكلام على الأصل الأول؛ وهو معرفة العبد ربه بأنه جل وعلا الخالق وحده لا شريك له ، المتفرد بالخلق والرزق والمن والعطاء ، وأن من هذا شأنه يجب أن يُفرد وحده بأنواع العبادة فلا يُجعل معه شريك في شيء منها . ثم ذكر رحمه الله تعالى أنواعاً من العبادات المقربات إلى الله جل وعلا ، مبيناً أن تلك العبادات ونظائرها وأمثالها حق لله يجب أن يُفرد بها وحده جل وعلا ، وأن صرف شيء منها لغيره يعدُّ شركاً بالله جل وعلا واتخاذاً للأنداد .

لما أنهى رحمه الله الأصل الأول شرع في بيان الأصل الثاني وهو : ((معرفة دين الإسلام بالأدلة)) ؛ ودين الإسلام هو الدين الذي رضي به الله جل وعلا لعباده، قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] ، وهو الدين الذي لا يقبل الله ديناً سواه؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، وهو دين الله جل وعلا، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] ، وقد أمر الله جل وعلا الدخول فيه كافةً ، لا أن يكون دخول المرء في أمور الإسلام مبنياً على الاختيار؛ يأخذ من أمور الإسلام ما أحب ويدع ما لا تهوى نفسه! ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ؛ وهذا يتطلب من العبد معرفة الإسلام وشرائعه ومبانيه وما يتعلق به من أحكام، ليجاهد نفسه في هذه الحياة ليكون من أهل الإسلام حقاً وصدقاً

وهذا الأصل أراد أن يبين فيه رحمه الله تعالى الإسلام الذي هو دين الله ، الدين الذي رضي به جل وعلا لعباده ؛ قال : ((معرفة دين الإسلام بالأدلة)) ؛ أشير هنا إلى ما سبق التنبيه عليه: وهو أن أمور الدين عموماً من عقائد وعبادات هي عبارة عن مسائل ودلائل ؛ فالإسلام هو مسائل عديدة وشرائع متنوعة مبنية على الدليل ، والدليل: «قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ» ؛ هذا هو الإسلام ، الإسلام مسائل وشرائع وأعمال وتكاليف مبنية على الدليل ، والدليل هو: قال الله تعالى، قال رسوله ﷺ . والعبد مطلوبٌ منه أن يعرف الدين بالدليل ، لا أن تكون معرفته بالدين مبنية على الهوى ، أو مبنية على الآراء ، أو مبنية على التجارب ، أو مبنية على المنامات أو الحكايات أو غير ذلك . من الأمور المؤسفة أن ترى في الناس من يتدين ويتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بزعمه بأعمالٍ ليست في القرآن ولا في السنة ولكنها مبنية على منام رآه ، أو تجربة فعلها ، أو حكاية سمعها ، أو رأيٍ أعجب به ، أو قصةٍ ذُكرت له ، أو نحو ذلك من الأمور التي جُعِلت لدى فئات من الناس مصادر للاستدلال في أمور الدين ؛ وهذا من الغلط بمكان ، دين الله جل وعلا الإسلام منبعه ومصدره الدليل ، والدليل هو «قال الله، قال رسوله عليه الصلاة والسلام» ، ولهذا كان ابن تيمية الإمام الجليل رحمه الله تعالى - كثيراً ما يقول : «من فارق الدليل ضل السبيل ، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ﷺ» كلمة عظيمة . ويقول الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله يقول : «كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير ما جاء به الرسول ﷺ؟!» أي أن هذا غير متأتٍ ولا ممكن .

فدين الله وشرعه هو مسائل مبنية على دلائل ، والدلائل هي قال الله قال رسوله ﷺ . هذا أصل لا بد أن ينتبه له المسلم ، فإذا جاءك شخص وقال لك : هذا الذكر جميل وهذا الدعاء حسن وهذه العبادة طيبة وقلت له : ما الدليل ؟ قال : الدليل أنني البارحة نمت ورأيت في المنام كذا وكذا ، قل له : دعني ومنامك ، إذا عندك آية من القرآن أو حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام فأهلاً وسهلاً ، حي علا . أما منام أو حكاية أو يقول : "جربت وجرب فلان وهذا بنينا على تجارب نحن وأشياخنا أو نحن وإخواننا" ؛ كل هذا لا يُبنى عليه دين ، الدين يُبنى على الدليل، والدليل قال الله قال رسوله ﷺ ، يُبنى على الأدلة .

ولهذا بدأ رحمه الله بتقرير هذا الأصل الذي لا بد أن يُقرر ، لأن هذا الأصل إن لم يُقرر ويثبت زاغ الإنسان وراغ عن الصراط المستقيم وأخذ هنا وهناك من سبل الانحراف الكثيرة ﴿وَأَن هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأعام: ١٥٣] الذي لا يعتصم بالدليل - كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام - لا بد أن يفارق السبيل شاء أم أبى ، لأن العصمة والأمانة والسلامة والسداد مع الدليل كلام الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه .

والمصنف رحمه الله مثلما رأينا في هذا الكتاب وفي كتبه الأخرى ماضي على جادة واحدة مضى عليها أهل السنة قاطبة في قديم الزمان وحديثه وهي: ذكر المسألة مضموماً معها دليلها ؛ يقول لك : يجوز كذا قال الله تعالى كذا ، لا يجوز كذا لقوله ﷺ كذا ، يحرم كذا لأنه ثبت في الحديث كذا وكذا .. ماضين على هذه الطريقة؛ يذكرون المسألة أو الحكم مضموماً إليه دليله . هذا الكتاب الذي بين أيدينا كتاب صغير الحجم، ومع صغر حجمه فيه من الأدلة ما يبلغ ستين دليلاً من القرآن والسنة ، كلما يذكر شيئاً يقول : قال الله تعالى أو يقول: قال ﷺ ، يبنى كل كلمة يوردها كل حكم يسوقه كل تقرير يورده على الدليل .

وهنا تعرف الفرق بين دعاة الحق و دعاة الضلال ، والفرق بين كتب أهل السنة و كتب أهل البدع ؛ ترى في كتب أهل البدع استدلال بغير القرآن والسنة ، إما يستدل بالعقل المجرد ، أو يستدل بالتجربة، أو يستدل بالمنامات ، أو يستدل بالحكايات ، إلى غير ذلك من مصادر الاستدلال الكثيرة التي أخذت الناس إلى سبل الانحراف عن صراط الله تبارك وتعالى المستقيم . ولهذا قرر هذا الأصل من البداية ؛ قال : ((معرفة دين الإسلام بالأدلة)) ، والأدلة عنده وعند غيره من أئمة الدين وعلماء السنة هي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ؛ هذه هي الأدلة ، ولهذا الكتاب كله ماضي على هذه الطريقة: إما يستدل بآية أو يستدل بحديث عن الرسول صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال : ((وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله)) ؛ هذا الإسلام. وهذا التعريف - أقول أيها الأخوة - ينبغي أن نحفظه ، تعريف عظيم جداً وجامع ، وهو من أحسن التعاريف التي بُيِّنَ بها الإسلام . الإسلام -قال- : ((هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك)) ؛ تأمل التعريف ترى فيه فائدة عظيمة في بيان حقيقة الإسلام .

والإسلام كما قال أهل العلم هذه اللفظة تتضمن أمرين في أصل دلالتها ؛ ألا وهما : الاستسلام والسلامة ؛ وكل من الأمرين قد رُوعي في هذا التعريف الذي ساقه الإمام رحمه الله .

أما السلامة ففي قوله : ((وهو الاستسلام لله بالتوحيد)) ؛ بمعنى أن يكون دينك وعباداتك وقرباتك سالمة من الشرك ، وخالصة وصافية ونقية لا يُراد بها إلا الله جل وعلا ، سالمة من مبطلات العمل ومفسداته تكون صفتها النقاء والصفاء والخلوص ، لا يُراد بها إلا الله جل وعلا ؛ فتكون مستسلماً لله ﷻ وَأَنِيبُوا

إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴿٥٤﴾ أي لربكم . فالاستسلام لله: أي خالصاً ، لا يُجعل مع الله تبارك وتعالى شريك فيه . ومعنى ذلك: لو أن أحداً جاء بشرائع الإسلام مثل الصلاة أو الصيام أو الصدقة أو الدعاء أو الذبح وفعلها ولكنه في نيته في الداخل قصد بها غير الله؛ أصبح إسلامه واستسلامه لغير الله ، جعل مع الله

شريكاً فخرج من السلامة ، لأن الإسلام مبني على السلامة من الشرك ، من مبطلات الأعمال ، من نواقض الدين يكون سالماً من ذلك ، ولا يكون سالماً من ذلك إلا بصفاء العمل ونقاؤه وخلوصه بحيث يكون لله تبارك وتعالى وحده ، لا يُجعل مع الله فيه شريك . ولهذا بدأ رحمه الله أول ما بدأ في تعريف الإسلام قال : ((الإسلام هو الاستسلام لله)) أي وحده ((بالتوحيد)) معنى الاستسلام لله بالتوحيد: أي أن تخلص دينك كله لله ، لا تجعل مع الله شريكاً في شيء من الدين لا قليل ولا كثير ، لأن الدين كله لله سبحانه وتعالى ، فتستسلم لله لا لغيره ، يكون دينك كله لله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥٠] ، ﴿أَلِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ، فإذا لم يكن الدين بهذه الصفة؛ خالصاً لله صافياً نقياً لم يُرد به إلا وجه الله ، إن لم يكن كذلك لا يقبله الله ، لأنه سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا الخالص كما في الحديث القدسي : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيри تركته وشركه)) أي ردَّ عليه عمله .

فإذاً حقيقة الإسلام أن تستسلم لله وحده بالتوحيد ؛ أي تكون في أعمالك موحداً لا مشركاً ، مخلصاً لا مندداً ، لا تريد بأعمالك إلا وجه الله سبحانه وتعالى؛ هذا الإسلام ؛ الاستسلام لله بالتوحيد . ((والانقياد له بالطاعة)) كما أن الإسلام إخلاص وتوحيد فالإسلام أيضاً انقياد لله وطوعية وامتنال لأمر الله سبحانه وتعالى وأمر رسوله ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] ؛ فهذا جانب آخر من معنى الإسلام وهو أن تستسلم لله بمعنى تدعن وتنقاد لأمره سبحانه وتعالى ولا تعصيه جل وعلا ، يكون شأنك كما نعت الله سبحانه وتعالى أهل الإيمان في خواتيم سورة البقرة ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] هذا هو المسلم يسمع ويطيع ، ينقاد بامتثال لأمر الله تبارك وتعالى ، يخضع له .

قال : الإسلام ((هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة)) ؛ أي أن تكون عبداً منقاداً مطيعاً ممتثالاً لأوامر ربك جل وعلا .

قال : ((والبراءة من الشِّركِ وأَهْلِهِ)) لا يكون مسلماً إلا من برأ من الشرك ومن أهل الشرك ، وإلا لا يكون من أهل السلامة ، إذا لم يبرأ من الشرك وأهله لا يكون من أهل السلامة الذين هم أهل الإسلام ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤]

هذا إعلان براءة من شيئين : من الشرك ومن أهل الشرك ؛ يبرأ المسلم من الشرك ، ويبرأ المسلم من أهل الشرك متخذين الأنداد والشركاء مع الله سبحانه وتعالى . وبهذا يُعلم أن من لم يبرأ من الشرك وأهله لا يكون

من أهل الإسلام ، لأن من الإسلام أن تبرأ من الشرك، ((من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله دخل الجنة)) ؛ اشترط الكفر بما يعبد من دون الله . فإذا البراءة من الشرك والبراءة من أهل الشرك هذه من الإسلام ومن حقيقة الإسلام .

هذا تعريف الإسلام ، وهو تعريف جامع مانع عظيم ينبغي على كل مسلم أن يحفظه وأن يحافظ عليه وأن يطبقه .

قال : ((الإسلام: الاستسلامُ لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشِّركِ وأَهْلِهِ)) ؛ والتعريف يتكون من جملٍ ثلاث ، وكل جملة من هذه الجمل أشرتُ إلى شيء من أدلتها في كلام الله تبارك وتعالى . قال: ((وهو ثلاثُ مراتبٍ)) والمراتب: هي المنازل والدرجات، قال الله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩]

قال : ((وهو ثلاثُ مراتبٍ)) ؛ أي الإسلام الذي هو دين الله تبارك وتعالى ليس هو مرتبة واحدة بل هو مراتب، وعدد هذه المراتب تحديداً ثلاث، الإسلام ثلاث مراتب وهي : مرتبة الإسلام ، ومرتبة الإيمان ، ومرتبة الإحسان ؛ هذه مراتب الدين . وأعلى مراتب الدين: مرتبة الإحسان ، ثم يلي هذه المرتبة مرتبة الإيمان، ثم يلي هذه المرتبة مرتبة الإسلام ، وليس بعد الإسلام إلا الكفر ؛ فهذه مراتب الدين . ومن المفيد جداً للمسلم أن يعرف مراتب الدين وأن يعرف حقيقة كل مرتبة ليبداً مع نفسه في مجاهدة وطلب عون من الله ومد بأن يبلغه جل وعلا الرتب العالية والمنازل الرفيعة ، «وأن تجعل الحياة زيادة لي في كل خير» ، فيبدأ مع نفسه في مجاهدة .

فإذاً دين الإسلام مراتبه ثلاثة وهي: الإسلام والإيمان والإحسان ، وإذا أردت أن تعرف حقيقة كل مرتبة والفرق بينها وبين الأخرى فاقراً حديث جبريل المشهور الذي يرويه الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه قال : «بيننا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد؛ حتى إذا جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم أسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا مُحَمَّد أخبرني عن الإسلام؟ قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً. قال : صدقت ، قال : فعجبنا له ، يسأله ويصدِّقه ! ثم قال : يا مُحَمَّد أخبرني عن الإيمان؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت، قال : أخبرني عن الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : صدقت، قال : فأخبرني عن الساعة؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : أخبرني عن أماراتها؟

قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ثم انطلق ، فلبث ملياً ثم قال : يا عمر أتدري من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : هذا جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم» ؛ جاء عليه السلام معلماً بصيغة السائل يعلم الناس دينهم .

انتبه جيداً لما حُتم به الحديث وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام : «يعلمكم دينكم» لتستفيد من ذلك فائدة عظيمة وهي موضوعنا ألا وهي: أن ديننا ثلاث مراتب بُيّنت في الحديث ؛ وهي الإسلام ، وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام وبيّن معناه ، والإيمان وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام وبيّن معناه ، والإحسان وشرحه النبي عليه الصلاة والسلام وبيّن معناه؛، فإذاً ديننا بُيّّن في هذا الحديث . ولهذا يُعد هذا الحديث أجمع حديث في بيان الدين ، حتى إن بعض العلماء كان يسمي هذا الحديث «أم السنة» ، مثل ما أن الفاتحة تسمى «أم القرآن» ، وأنتم تعلمون أن الفاتحة سميت «أم القرآن» لأنها جمعت علوم القرآن ؛ بمعنى أن ما بُيّّن في القرآن كله تفصيلاً قد بُيّّن في الفاتحة إجمالاً ، بمعنى أن سورة الفاتحة أجملت كل تفاصيل القرآن ولذا صارت أمّاً للقرآن ، وحديث جبريل المشهور جمع تفاصيل السنة وشرائع الإسلام ورتب الدين جمعها في هذا الحديث العظيم ؛ ولهذا أطلق عليه بعض العلماء «أم السنة» . وكثير من أهل العلم ينصح بحفظ هذا الحديث حتى العوام ، والذي لا يستطيع أن يحفظ يكرر الحديث عشرين ثلاثين أربعين مرة حتى يكون محفوظاً له .

بعض العوام لم يجد من يوجّهه ، أذكر مرة كنا في مكان فيه بعض البوادي فقلت لأحدهم اقرأ سورة الإخلاص {قل هو الله أحد} لم يحسن قراءتها ، قال لي : أنا عندي قصيدة ، قلت : هات القصيدة ، ويعطينا قصيدة قرابة ستين بيت ، عنده قدرة يحفظ لكن ما وجد من يوجهه ليحفظ مثل هذه الأمور!! ، لهذا عندنا هنا أحاديث وأمور جامعة ينبغي للعامي أن يجاهد نفسه على حفظها ولا يغالط نفسه يقول أنا ما أستطيع أن أحفظ ، يتفقد نفسه سيجد أنه يحفظ أشياء أعجبتة وحفظها ويردها بين وقت وآخر حتى لا تضع منه ، هذا أولى ؛ حديث جبريل وفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص وسورة المعوذتين هذه أولى ، هذه تجمع لك مقاصد الدين ، تجمع لك أساس السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ؛ فيجاهد نفسه على حفظ مثل هذه الأحاديث .

الشاهد أن حديث جبريل حديث ينصح العلماء بأن يُحفظ ، ولعل في هذه المناسبة يكون تعاون يبدأ بيننا وهو موجود لكن نريد منه؛ نحفظ الأربعين للنووي ، وأنا أنصح الحجاج والزوار أن يشتروا هدايا كتاب الأربعين للنووي، وكتاب الأصول الثلاثة ، ويبدأ في البلد يشجع العوام والصغار والنساء والأولاد يحفظون ، ليس هناك من يشغلهم في البلاد بحفظ القصائد وبحفظ التوافه وبحفظ الأمور التي لا قيمة لها ولا فائدة ؟ إذاً نحن أيضاً لابد أن نعمل مع أولادنا ، أهلينا ، جيراننا ، نبدأ نفعل انتشار الخير ونشجع عليه ونحفز حتى

ينتشر الخير ، لاسيما أننا في هذا الزمان ابتليت عقول كثير من الناس من خلال القنوات ومن خلال المجالات ومن خلال وسائل كثيرة التي انفتحت على الناس شُغلت العقول ، تجد كثير من الناس يعرف أشياء كثيرة إلا دينه الذي حُلِق لأجله لا يعرفه ؛ أساسيات في الدين أصول قواعد مهمة في الدين لا يعرفها ، وإذا سألته عن توافه من أمور الدنيا أو توافه من المحرمات والحسائس يعرفها بالتفصيل!! شُغلت العقول . والجميع متحمل أمانة أن ينشر هذا الدين ، وأن يكون من المتعاونين على البر والتقوى وإيصال الخير للناس، ولا تُترك الساحة لدعاة الضلال وأئمة الباطل وأرباب الشهوات يصلون إلى العقول وإلى القلوب وإلى النفوس ويضيِّعون الناس .

حديث جبريل حديث عظيم جداً وفيه بين النبي ﷺ مراتب الدين الإسلامي على الترتيب ؛ الإسلام ، ثم أعلى منه الإيمان ثم أعلى منه الإحسان ؛ بَمَ عَرَفَ النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام ؟ لاحظ الآن ملاحظة قبل قليل نبهنا عليها وهو أن الإسلام ينتظم أمرين: سلامة واستسلام ، وأنظرهما في بيان النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً)) ؛ فعَرَفَ الإسلام بذكر الأصل الذي يبنى عليه وهو التوحيد ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وبها بدأ ، ثم ثنى بالشهادة للرسول عليه الصلاة والسلام بالرسالة وهذا معناه الطاعة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ [النساء: ٦٤] ، ثم ذكر أعظم شرائع الإسلام وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج .

فإذاً الإسلام هو استسلام لله بالتوحيد «أشهد أن لا إله إلا الله» هذا معناها ، وهو أيضاً انقياد لأوامر الله وأوامر رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأعظم شيء في الدين يؤمر العباد بتحقيقه هذه المباني المذكورة في الحديث . ولهذا صح في حديث آخر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((بني الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام)) ؛ فجعل هذه الخمس مباني للإسلام بمعنى أنها أعمدة يبنى عليها الإسلام ويقوم . هذا تفسير الإسلام ، وهو تفسير له من النبي عليه الصلاة والسلام بأمور وشرائع ظاهرة وهي الشهاداتان والصلاة والصيام والزكاة والحج ؛ شرائع ظاهرة .

ثم بعد ذلك فسر الإيمان بقوله : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ؛ وهذه الستة ماذا ؟ أين مكانها ؟ القلب ، هذه الستة كلها اعتقادات مكانها القلب ؛ ففسر الإسلام بالشرائع الظاهرة ، وفسر الإيمان بالاعتقادات الباطنة التي مكانها القلب ؛ وفي ضوء ذلك تستطيع أن تعرف حقيقة الإسلام وحقيقة الإيمان ، وأيضاً تستطيع أن تعرف الفرق بين المسلم والمؤمن ، الآن إذا

قرأت قول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وقيل لك : ما الفرق بين مسلم ومؤمن ؟ أو قيل لك : من المسلم ومن المؤمن ؟ في ضوء حديث جبريل يتضح لك الأمر ويتبين لك .

فإذا قيل : من المسلم ؟ تقول مجيباً على هذا السؤال مستنداً على حديث جبريل المشهور تقول : المسلم هو الذي يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة ، لكن إلى هذا الحد التعريف لم يتم؛ لأنه يوجد من يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة وفي القلب على خلاف ذلك ، فيكون في الظاهر يأتي بالشرائع وفي الباطن على خلاف ذلك هذا من هو ؟ المنافق ، المنافق هو الذي يأتي بالشرائع الظاهرة ولكن الباطن خراب تباب ليس فيه إيمان ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] ، في الآية الأخرى قال : ﴿وَإِذَا قُلُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤] ، في الآية الأخرى قال : ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢] يعني كل هذه الأعمال مراعاة أما الباطن شيء آخر .

إذاً نعود للسؤال مرة أخرى : من المسلم ؟ المسلم هو الذي يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان القدر الذي يصحح إسلامه ؛ هذه لابد أن تضاف . المسلم هو الذي يأتي بشرائع الإسلام الظاهرة ؛ يصلي يصوم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وعنده -أي في قلبه- من الإيمان ما يصحح إسلامه ، لا يشترط أن يمتلئ القلب إيماناً ، بل يكفي ليكون مسلماً أن يوجد في القلب القدر الذي يصحح الإسلام ، ما هو القدر الذي يصحح الإسلام ؟ هو الإيمان الجازم بهذه الأصول؛ بمعنى أن لا يكون عنده شك في الإيمان بالله ولا بالكتب ولا بالرسول ولا باليوم الآخر ولا بالقدر ، لا يكون عنده شك في ذلك؛ لأنه إن وجد الشك ارتفع الجزم ، وإذا ارتفع الجزم انتفى الإيمان ووُجد الكفر وحبطت الأعمال ﴿وَمَنْ يُكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ١٧٠] ؛ فلا بد أن يكون عنده الإيمان الجازم ؛ أي الذي لا يكون فيه شك ولا ريب بهذه الأصول .

هناك شيء أعلى من الإيمان الجازم اسمه «الإيمان الراسخ»؛ هذا لا يشترط، هذه درجة أعلى ، وهي درجة أهل الإيمان ، أهل الإيمان هم الذين رسخ الإيمان في قلوبهم . إذاً المسلم هو الذي جاء بشرائع الإسلام الظاهرة وعنده من الإيمان ما يصحح إسلامه هذا المسلم .

المؤمن من هو ؟ أجب على السؤال في ضوء حديث جبريل قال : ((الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره)) فتقول: المؤمن هو الذي تحقق الإيمان في قلبه ودخل وتمكن ورسخ؛

هذا هو المؤمن ، ومن المعلوم أن من لوازم تحقق القلب بالإيمان أن تصلح الجوارح بالأعمال ، ولهذا قال العلماء : « كل مؤمن مسلم » لأنه إذا تحقق القلب فعلاً بالإيمان ورسخ الإيمان في القلب الجوارح ستعمل وتنقاد وتستسلم وتدعن ، ولهذا قال العلماء « كل مؤمن مسلم » ، لكن العكس : هل كل مسلم مؤمن ؟ يعني هل كل من جاء بشرائع الإسلام تحقق الإيمان في قلبه ؟ ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾ هذه درجة أعلى ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] يعني ما زلتم في درجة أقل ، درجة الإيمان لم تبلغوها ، لا تقولوا آمنا لأنكم لم تبلغوا درجة الإيمان ، ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ يعني أنتم ما زلتم في هذه الدرجة ، أما درجة الإيمان لم تبلغوها بعد .

سعد ﷺ كان واقفاً عند النبي عليه الصلاة والسلام وكان يعطي عطايا ؛ فقال : يا رسول الله ما لك عن فلان ؟ - يعني لم تعطه - وإني لأراه مؤمناً ؟ قال : ((أو مسلماً)) نبهه إلى هذا الأمر ، قال : ((أو مسلماً)) لأن درجة الإسلام أقل ودرجة الإيمان أعلى . وإذا عرفت أن درجة الإيمان أعلى من درجة الإسلام فمعنى ذلك: أن الدرجة العالية لا يوصل إليها إلا بتحقيق الدرجة التي دونها . ولهذا كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً .

إذاً من المؤمن في ضوء حديث جبريل ؟ المؤمن هو الذي تحقق الإيمان في قلبه ورسخ في نفسه ، ومن كان بهذا الوصف جوارحه ستصلح تبعاً لذلك ، والجوارح تبع لمرادات القلوب كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)) ؛ فالقلب إذا عُمر بالإيمان الجوارح كلها تصلح تبعاً له . ولهذا يؤثر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «القلب ملك والجوارح جنوده ؛ فإذا طاب الملك طاب الجند ، وإذا خاب الملك خاب الجند» ، أورد هذا شيخ الإسلام ابن تيمية وقال كلاماً معناه : أن كلام النبي ﷺ أدق ؛ أو عبارة نحوها . لأن الملك قد يطيب ويخيب بعض الجند ، والملك قد يفسد ويطيب بعض الجند ، أما القلب ليس فيه هذا الأمر ؛ إذا صلح الجوارح كلها تصلح تبعاً له لأن الجوارح لا تتخلف عن مرادات القلوب .

وبهذا نعلم أن القلب إذا تحقق بالإيمان وعمر بالإيمان ورسخ الإيمان فيه الجوارح صلحت تبعاً له ، وهذا معنى قول العلماء رحمهم الله : « كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً » .

ثم بعد ذلك تأتي درجة أعلى من هاتين الدرجتين وهي درجة الإحسان ، قال : ((أخبرني عن الإحسان)) والإحسان أصل هذه الكلمة في مدلولها اللغوي : الإتقان والإجادة ، فما هي درجة الإتقان والإجادة وأن تبلغ في الدين الذروة والدرجة العالية الرفيعة ؟ ما الإحسان في الدين ؟ متى يكون الإنسان أتقن دينه وجاء منه بالدرجة العليا والمنزلة الرفيعة ؟ ما الإحسان - يعني في الدين - متى يكون الإنسان محسناً متقناً مجيداً في

دينه بلغ الرتبة العليا؟ » قال : أخبرني عن الإحسان « أي في الدين ، قال : ((أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) ؛ يعني أن تكون في عبادتك لله سبحانه وتعالى بهذه الحال؛ خاضعاً ، خاشعاً ، ذليلاً ، منكسراً ، مقبلاً على الله سبحانه وتعالى كأنك ترى الله ، وإن لم تكن تراه فإنه يراك ، إن لم تكن تراه ببصرك اعلم أنه يراك ويطلع عليك ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلِبَ فِي

السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩] .

وعندما يصل العبد في عبوديته وذله وانكساره بين يدي الله تبارك وتعالى إلى هذه الدرجة -يعبد الله كأنه يرى الله- يكون بلغ الاتقان والإجادة ؛ فيكون محسناً وصل إلى درجة الإحسان . وهذه الدرجة كانت في الأولين كثيرة وفي الآخرين قليلة ، كما يوضح ذلك قول الله جل وعلا في سورة الواقعة؛ لما ذكر درجة المقربين وهم المحسنون قال : ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤] ، وكونهم في الآخرين قليل هذا ليس مثبطاً للإنسان بل هذا دافع للإنسان أن يجاهد نفسه ويسأل ربه تبارك وتعالى أن يعينه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] يجاهد نفسه بتحقيق الإحسان . وأعظم ما يتحقق به الإحسان : معرفة الله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا وبما تعرّف إلى عبادته به في كتابه وفي سنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكلما عظمت معرفة العبد بالله زاد تحقق الإيمان في قلبه ورسوخه فيه ، وبدأ صعوداً وارتقاءً إلى الإحسان والاتقان في دينه . قال : ((أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) .

في ضوء الحديث عرفنا الإسلام والإيمان والإحسان وعرفنا أيضاً المسلم والمؤمن والمحسن . أحد العلماء من المتقدمين ضرب مثلاً توضيحياً مفيداً لهذه الدرجات ؛ وضع ثلاثة دوائر: دائرة صغيرة ، ثم تحيط بها دائرة أوسع منها، ثم تحيط بها دائرة ثالثة أوسع وقال : الإحسان هو هذه الدائرة ، يعني الدائرة الصغيرة التي في الوسط ، والإيمان: الدائرة الأوسع ، والإسلام: الدائرة الأوسع ؛ أول ما يدخل الإنسان لدائرة الدين يدخل الإسلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويبدأ بشرائع الإسلام ؛ أصبح مسلماً دخل في دائرة الإسلام ، تعمق في الدين وعرف حقائق الإيمان وقوي الإيمان في قلبه وتمكن في نفسه ورسخ دخل للدائرة الأخرى التي هي دائرة الإيمان ، زاد حظه وقوي نصيبه من الإيمان وترقى في رتبته ودرجاته إلى أن بلغ به الحال في تقربه إلى الله وعبادته لله وإتيانه بالطاعات والعبادات إلى أن أصبح يعبد الله كأنه يرى الله دخل في درجة الإحسان .

الذي في دائرة الإحسان هو أيضاً في دائرة الإيمان وهو أيضاً في دائرة الإسلام؛م ولهذا «كل محسن مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمناً ، وليس كل مؤمن محسناً» ، فالذي في دائرة الإحسان إن خرج منها يكون

في دائرة الإيمان ، فإن خرج منها يكون في دائرة الإسلام ، فإن خرج من دائرة الإسلام ليس بعد الإسلام إلا الكفر ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] ، إذا خرج من دائرة الإسلام ليس هناك إلا الكفر بالله تبارك وتعالى؛ يكون من أهل النار. من يخرج من هذه الدوائر يكون من أهل النار ، إن مات على ذلك كان من أهل النار مخلداً فيها أبد الآباد .

فهذه مراتب الدين الإسلامي ، والمصنف رحمه الله سيتكلم عن أركان كل مرتبة .
مرتبة الإسلام أركانها خمسة - ستأتي عند المصنف ومرت معنا في حديث جبريل - شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ هذا الركن الأول ؛ الشهادتان ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام ؛ هذه أركان الإسلام . والدليل على أنها أركان للإسلام قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((بني الإسلام على خمس)) ؛ بمعنى أنها للإسلام بمثابة الأعمدة للبناء

والبيت لا يبنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم يرس أوتاد

فهي للإسلام بمثابة الأعمدة ، قال : ((بني الإسلام على خمس)) وذكر هذه الخمس .، فهذه الخمس تعد أركاناً يبنى عليها . والإيمان أركانه ستة وستأتي عند المصنف رحمه الله تعالى . والإحسان له ركن واحد وأيضاً سيأتي عند المصنف رحمه الله تعالى ؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال رحمه الله : ((فَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ خَمْسَةٌ : شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحُجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ)) ثم بدأ رحمه الله تعالى يفصل في هذه الأركان بعض الشيء فيذكر كل ركن منها ويذكر معه دليله من كلام الله سبحانه وتعالى .

تتمة لموضوع مراتب الدين ؛ هذه المراتب جاء ذكرها في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴿فَاطِرُ: ٣٢-٣٣﴾ ؛ الواو في قوله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ تتناول من ؟ ذكر في الآية أصناف

ثلاثة: ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، ثم قال : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ هل قوله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ تتناول الثلاثة : الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ؟ أم أنها خاصة بأقرب مذكورين وهما :

المقتصد والسابق بالخيرات ؟ هل تتناول الجميع ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي يدخلها الظالم لنفسه ويدخلها المقتصد ويدخلها السابق بالخيرات ؟ أو هي خاصة بالمقتصد والسابق بالخيرات ؟ الجواب على ذلك يحتاج إلى

أمرين : يحتاج إلى فهم السياق كاملاً ، ويحتاج أيضاً إلى فهم ما المراد بالظالم لنفسه ؟ وما المراد بظلم النفس هنا ؟ لأن الظلم إذا أطلق في القرآن :

● تارةً يراد به : الظلم الذي هو الشرك والكفر بالله .

● وتارةً يراد به : الظلم الذي هو المعاصي والذنوب التي دون الكفر .

فنرجع للآية وننظر ما المراد بالظلم هنا ؟ هل المراد بالظلم في قوله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ هل المراد ظلّمها بالمعصية التي هي دون الكفر ؟ أو ظلّمها بالشرك والكفر ؟ أي المعين مراد ؟ إن كان المراد " ظلّمها " أي بالشرك والكفر ليس داخل ، لا يدخل الجنة مشرك أو كافر ﴿لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٠] ، وإن كان المراد ظلم نفسه بالمعاصي التي هي دون الكفر فهل يدخل الجنة أو لا ؟ الذي ظلم نفسه بمعصية دون الكفر هل يدخل الجنة أو لا يدخلها ؟ الجواب : نعم يدخلها ، لكن لا يلزم من دخوله الجنة أن يكون دخولاً أولاً ، بل ربما مر قبل دخوله الجنة بمرحلة تعذيب في النار ، كما جاءت النصوص دالة على دخول عصاة الموحدين النار وبقاءهم فيها على قدر ذنوبهم تمحيصاً لهم وتطهيراً ثم بعد ذلك يدخلون الجنة . وقد بيّن النبي عليه الصلاة والسلام صفة خروجهم من النار في الحديث الذي في الصحيحين ، قال عليه الصلاة والسلام : ((إذا أذن الله عز وجل بخروجهم أماتتهم النار إماتة فكانوا فحماً)) يعني مثل قطع الفحم ((ثم يخرجون من النار ضبائر ضبائر)) ما معنى «ضبائر ضبائر» ؟ أي جماعات جماعات ودفعات دفعات ، لماذا لم يخرجوا جميعاً دفعة واحدة ؟ لأن كبائرهم في الدنيا متفاوتة فلم يخرجوا من النار دفعة واحدة وإنما يخرجون على دفع ، لأن الكبائر التي أدخلتهم النار هم متفاوتون فيها ، قال : ((فيخرجون ضبائر ضبائر)) يعني جماعات جماعات (ويُلَقَّون في نهر الفردوس)) تطرح هذه القطع المنفحمة تلقى في نهر الفردوس قال : ((فيحيون بمائه وينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل)) .

هؤلاء ظالمون لأنفسهم لكن هل ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ؟ لو ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك لكان دخولهم النار دخول تخليد وتأبيد ، أما من كان ظلمه لنفسه بالمعاصي التي دون الشرك فإن دخوله للنار لا يكون دخول تخليد وتأبيد وإنما يكون دخول تطهير وتنقية ؛ يدخل ليطهر وينقى . الكافر المشرك لا يدخل النار ليطهر وينقى لأن خبث الشرك لا تطهره النار ولهذا يدخل النار ليبقى فيها أبد الآباد ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ .

فإذاً الظالم لنفسه في قوله ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ ما المراد به ؟ هل المراد به الذي ظلم نفسه بالمعصية؟ أو الذي ظلم نفسه بالشرك؟ اقرأ الآيات ويأتيك الجواب؛ لما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأقسام الثلاثة ﴿

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴿ ذَكَرْنَاهُمْ فِي الْجَنَّةِ ، بعدها بقليل قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرَّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿ [فاطر: ٣٦-٣٧] ؛ هل قوله «الظالمين» هنا هي نفس الظالمين هناك : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ ؟ لا ، ﴿ فَمَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ أي الكافرين المشركين ، الظلم هنا المراد به: الشرك . والظلم الذي في الأول ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أي الظلم بالمعاصي والكبائر التي دون الشرك ، هذا واضح تماماً في السياق .

وعلى هذا فإن ورثة الكتاب أهل الإسلام ذُكروا في الآية أقساماً ثلاثة : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ ورثة الكتاب ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ مُصْطَفِينَ ومن عباد الله ، وختم الآية بقوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ ، ذكرهم أقساماً ثلاثة ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ ؛ فإذا المراد بالظالم لنفسه هنا من هو ؟ الذي ظلم نفسه بالذنوب والمعاصي التي دون الشرك ؛ بمعنى أنه ترك بعض الواجبات التي لا يكون تركها كفراً ، أو فعل بعض المحرمات التي لا يكون فعلها كفراً ؛ هذا ظالم لنفسه . المقتصد من هو ؟ الذي فعل الواجب وترك المحرم ، مقتصد ؛ فعل الواجب وترك المحرم . السابق بالخيرات هو الذي إضافة إلى فعل الواجبات وترك المحرمات نافس في الرغائب وأنواع المستحبات .

والعلماء رحمهم الله يقولون : السابق بالخيرات والمقتصد كلاهما يدخل الجنة دخولاً أولاً بدون حساب ولا عذاب ، ودرجتهم في الجنة متفاوتة ، والظالم لنفسه يدخل الجنة لكنه قد يمر قبل دخوله لها بمرحلة تطهير وتنقية في النار ثم يدخل الجنة .

نعود إلى السؤال السابق ؛ قول الله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ الواو تشمل الثلاثة أو لا ؟ تشمل الثلاثة ؛ الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ، إلا أن السابق بالخيرات والمقتصد دخولهما للجنة دخولاً أولاً بدون حساب ولا عذاب -نسأل الله العظيم لنا أجمعين من فضله- ، والظالم لنفسه يدخل الجنة لكنه قد يمر قبل ذلك بمرحلة تطهير وتنقية في النار والكل يدخل الجنة . ولهذا الإمام المفسر العلامة الشيخ الشنقيطي يعظم الواو هذه ، جاء في تفسيره في مواضع كثيرة إذا جاء عند هذه الواو يقف عند الواو : ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ يعظم الواو هذه ، وهذا من بصيرته رحمة الله عليه بالقرآن ؛ يقف عند الواو ويقول : هذه الواو ينبغي أن تكتب بكذا ويعظم الواو لأنها شملت هؤلاء كلهم ؛ الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات

، الكل يدخل الجنة ، لكن السابق بالخيرات والمقتصد يدخلون بدون حساب ولا عذاب ، والظالم لنفسه عرضة للحساب والعقاب ، عرضة لدخول النار ، وإذا دخل النار لا يخلد فيها .
وهذا يفيدك فائدة عظيمة في مكانة التوحيد؛ فالتوحيد إذا حققه العبد لم يدخل النار كان مانعاً من دخول النار ، وإذا لم يحققه العبد يعني أتى بأمور تنقصه من المعاصي وما لا يكون كفراً فإنه يمنع من الخلود في النار ، وقد جاء في الحديث القدسي أن الله سبحانه وتعالى يقول : «أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان» هذا يدلنا على مكانة التوحيد العظيمة ومنزلته العلية .
والله تعالى أعلم ، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .